بسم الله الرحمن الرحيم

تجربتي مع حسن فتحي

بدأت معرفتي بالمرحوم المعماري حسن فتحي عن قرب بداية من منتصف الستينيات واستمرت حتى وفاته في ٣٠ نوفمبر عام ١٩٨٩ بالغا من العمر ما يقرب من ٩٠ عاما. وكنت قد قابلته العديد من المرات قبل ذلك كما سمعت عنه الكثير، ولكنها كانت مقابلات عابرة استلزمتها ظروف وقتية. بدأ لقائي الحقيقي به عندما عهدت اليه وزارة الثقافة بتصميم مشروع معهد الفنون الشعبية بالهرم، كما عهدت الوزارة الى شركة التعمير والمساكن الشعبية في نفس الوقت باعداد الرسومات التنفيذية ومواصفات هذا المشروع تحت اشرافه. وكنت أرأس حينئذ ما كان يسمى بقسم المباني العامة بهذه الشركة وبالتالي فقد كانت مسئوليتي مع المجموعة الصغيرة من المهندسين والمهندسات التي تعمل معي أن نتعاون مع المرحوم حسن فتحي في اعداد هذا المشروع. وقد اشتمل المشروع على ما أذكر على أقسام علمية وبحثية بما يلزمها من قاعات وصالات ومكاتب لتسجيل ودراسة الفنون الشعبية بأنواعها المختلفة من النواحي التعبيرية واللغوية والرمزية وعلاقاتها بالفرد والمجتمع. كذلك شمل المشروع على متحف للعمارة البيئية والاسلامية يحتوي على نماذج بالحجم الطبيعي لعمارة الصحراء والواحات ومنطقة النوبة والعمارة الريفية والحضرية. كما احتوى المتحف أيضا على نماذج لروائع العمارة الاسلامية القاهرية . كنت لأول مرة أتعرض بصورة مباشرة لعمارة حسن فتحي وفكره وأسلوبه في البناء وتشكيله الرائع للحيز داخلي كان أم خارجي. وقد أقبلنا جميعا على هذا العمل بروح تجاوزت كثيرا ما تتطلبه مسئوليات الوظائف وواجباتها، فيكفينا فخرا أننا كنا نعمل مع حسن فتحي ونجول معه في آفاقه الفكرية والفلسفية الرحبة. ان قيود العمل المتعارف عليها قد انهارت تماما أمام هذه الروح الخلاقة التي حررتنا منها. لقد كان المرحوم حسن فتحي سعيدا بنا كما كنا حقا سعداء به، وكانت علاقتنا به علاقة حبيبة دفعتنا دفعا للالتفاف حوله وكانت أشبه بعلاقة الأبناء بأبيهم أو علاقة التلاميذ بأستاذهم العزيز.

تبدأ اللقاءات معه عادة بمراجعة الرسومات التي أعددناها ثم يجري عليها ما يعن له من تغييرات أو اضافات وتحديد ما يجب علينا عمله في المرحلة التالية ثم يتطرق بنا الحديث وهو جالس على لوحة الرسم ونحن وقوفا حولها لساعات طويلة شارحا لنا خبايا العمارة الفرعونية والعمارة الاسلامية والبيئية موضحا رموزها وما تعنيه من الناحيتين المادية والمعنوية وكيف أنها نابعة من روح المجموع ووجدانه. ثم يفيض في شرح محلية هذه العمارة من جهة وارتباطاتها الكونية من جهة أخرى، ثم لا يلبث أن يهاجم هجوما شديدا العمارة المستوردة من أوربا وأمريكا ومستورديها من المعماريين. وكان نصيب الموظفين البيروقراطيين في دوائر الوزارات والمصالح من هجومه ليس بقليل .

لم نكتفي باللقاءات معه داخل مقر الشركة في شارع الجلاء وقتئذ، بل كنا نجتمع بمنزله بصورة منتظمة عصرا أو مساء، ثم قمنا معه بجولات داخل شوارع القاهرة التراثية وأزقتها وكذلك داخل مساجدها وبيوتها الشهيرة المعروفة مثل بيت السناري والسحيمي وجمال الدين الذهبي وكتخدا وغيرها. وقد رأينا من خلاله هذه التحف المعمارية الرائعة وأحسسنا بما تعنيه من قيم حضارية وجمالية ولا أظن أنه كان بمقدورنا أن نقف على مدلولات ومعاني تخطيط وعمارة القاهرة التراثية دون وجود هذا الأستاذ العظيم. لقد كان دائما يتجاوز في شرحه ماديات العمارة والتخطيط الى معنوياتها ومدلولاتها وكيف أنها في نهاية المطاف تعبيرا حقيقيا عن سمو الانسان ونبله وصدقه مع نفسه ومع خالقه . فعلى يديه تعلمنا أن العمارة ليست مأوى (shelter) بل هي تعبير حي عن وجدان الانسان وتحقيقا لرغبته الدائمة في الانتماء واكتشاف الذات

وميله الغريزى للخلق والابداع. وقد عرفنا من خلاله التحاور الثلاثى البديع بين العمارة والطبيعة والانسان وكيف تتكامل معا وتتعاون على اثراء الحياة واضافة أبعادا جمالية وروحية اليها.

وكما جلنا معا فى شوارع القاهرة وأزقتها، قد زرنا أيضا رشيد ووقفنا على روائعها العمرانية. فالأمر لم يتوقف عند حدود تعاون مشترك بيننا وبينه لاعداد مشروع بل امتد الى ارتباطات فكرية وروحية جمعتنا مع هذا الرجل. وكان ببساطته المتناهية وباخلاصه وصدقه شديد النفاذ الى قلوبنا وعقولنا.

أما بالنسبة لى شخصيا، فقد أحسست بتعاطف مشترك يجمعنا ويربطنا منذ ذلك الوقت وحتى وفاته وقد أرجع ذلك الى شعورى القوى بأننى غريبا على المكان والزمان فى ذلك الوقت. فلم أكن أجد لنفسى موضعا فى المناخ الثقافى والاجتماعى الذى كان سائدا حينئذ وأحسست بعزلة شديدة وقد تكون ذلك لقناعتى بالتناقض الشديد بين ما كان يجرى حولى وبين ما كنت عليه من مبادئ وقيم. ثم جاء حسن فتحى لأجد فى غربته أيضا شئ من الطمأنينة والمشاركة وكان لى دائما نعم الملجأ ونعم المعين. وقد أرجع هذا التقارب الشديد بيننا أيضا الى تقابل فكرى واحترام وتقدير متبادل. لقد سبق أن أعلنت بحثا عن فلسفة الفن الاسلامى ولم يستند هذا البحث الى نظريات وحقائق علمية تتداولها الكتب والمراجع بل كان جهد شخصى منفرد فى محاولة ذاتية لتفهم الفكرة الفلسفية وراء الفن فى الاسلام. وقد نشر هذا البحث فى منتصف الخمسينيات فى احدى المجلات الأمريكية العلمية المتخصصة التى تعنى بالفنون وتاريخها، وقد أعطيت حسن فتحى نسخة من هذا البحث فقرأها بامعان ولم يزد فى تعليقه عليها أن قال" أعتقد أننا لن نجد صعوبة فى أن يفهم كلا منا الآخر ".

هذه الاجتماعات الطويلة معه والاستماع الى فكاهاته وأسلوبه الحلو اللاذع سواء كان مادحا أو قادحا لابد وأن يثير عليه صديقه المرحوم أحمد شرمى ويوغر صدره. لقد كان أحمد شرمى فى ذلك الوقت كبير المهندسين بالشركة ولم يكن سعيدا أبدا أن يرى مجموعة من مهندسيه يقرون من تحت سلطانه ويلتفون حول حسن فتحى ويقبلوا اقبالا كبيرا على أفكاره وآرائه. وكنت بحكم منصبى أتحمل هذا اللوم وكان من الواجب علىّ ألا أدع علاقة المهندسين بحسن فتحى تتجاوز الضرورة التى تقتضيها اعداد مشروعه. أما الحديث معه عن العمارة الفرعونية أو الاسلامية أو البيئية أو غيرها ، فكان فى رأى شرمى بك مضيعة للوقت وضرب من العبث الذى لا طائل من ورائه. وحقيقة الأمر أننى كنت أدفع المهندسين دفعا للالتفاف حول حسن فتحى وأتجاهل تماما متطلبات الوظائف والرسميات وما شابههما. كان من الواضح أن أحمد شرمى وحسن فتحى على طرفى نقيض. فالأول ملتزم تماما بمقتضيات الروتين والتسلسل الادارى الذى يستوجب الطاعة التامة شبه العمياء للرؤساء والشدة مع المرؤسين، أما الثانى فكان حرا الى أبعد ما تكون الحرية ، لا يعبأ بالشكليات ولا يهتم بشئ الا بفكره الحر الخلاق ونظرياته وفلسفته.

كان من الواضح لى أن علاقة الرجلين قديمة ومركبة اذ أنهما كانا متقاربين فى السن وفى سنوات التخرج كما كان يجمعهما صداقات أسرية تمتد الى الآباء والأجداد، وربما أن أقرب ما يوصفا به أنهما كانا صديقين لدودين. لم تلقى نظريات وآراء حسن فتحى تقديرا كبيرا من أحمد شرمى وكان ينكر عليه الحديث عن العمارة الاسلامية والعمارة الفرعونية، فلم يسبق له أن درس هذه التخصصات دراسة أكاديمية فى المدارس والجامعات. أما هو فقد تتلمذ على أساطين العمارة الاسلامية فى ذلك الوقت مثل المرحوم مصطفى باشا فهمى ، وبالتالى فهو أحق من حسن فتحى بالحديث عنها لمعرفته بنسبها وتفاصيلها. لم يفطن أحمد شرمى الى أن الفكر الانسانى فى انطلاقه وخلقه لا يحتاج بالضرورة الى دراسة رسمية فى جامعة أو معهد. وقد بادله حسن فتحى هجوما بهجوم بقوله أن العمارة التى يتحدث عنها شرمى هى فى حقيقة الأمر عمارة اسلامية طراز عباس حلمى

الثانى التى لا تتجاوز فى اسلاميتها مسافة ٢ سم فقط هى سطح البياض المزخرف زخرفة اسلامية فهى عمارة زخرفية خارجية لا تمتد الى المضمون الداخلى والمعنى الحقيقى للعمارة والعمران. لم يتوقف الاثنين أثناء فترة اعداد المشروع عن تبادل الاتهامات. روى لى المرحوم أحمد شرمى الكثير عن تصرفات حسن فتحى فى طفولته وشبابه مما يوحى بأنه كان غريب الأطوار ثائرا على المألوف والمعروف. ففى أثناء الزيارات العائلية وبينما الكبار جالسين يتبادلون أطراف الحديث والصغار صامتين يستمعون فى أدب شديد الى أحاديث آبائهم، كان يحلو لحسن فتحى أن ينسل من هذا الجمع وينفرد فى احدى الغرف المجاورة بآلته الموسيقية "الكمان" ويظل يعزف منفردا غير عابئ بأن عزفه هذا قد يفسد على الضيوف سمرهم وأحاديثهم. كما روى لى قصة أخرى، ففى أثناء احدى المحاضرات بمدرسة المهندسخانة الملكية (وكان هذا اسم كلية الهندسة فى ذلك الوقت)، طلب منه أستاذ الرياضة الانجليزى الجنسية أن يخرج ويبعد عن المدرج غرابا ظل ينعق بصوت كريه لم تحتمله أعصاب المحاضر والحاضرين وبحث الطالب حسن فتحى عن حجر كبير وألقى به فى اتجاه غرفة العميد وأدى ذلك الى تناثر شظايا زجاج الشباك فى أنحاء الغرفة محدثا فزعا كبيرا. وقد حاول حسن فتحى أن يدافع عن نفسه بقوله أن الغراب اللعين طار فى اتجاه مكتب العميد الانجليزى فكان ولابد أن يتبعه الحجر فى هذا الاتجاه، فالخطأ لم يكن خطأه بل خطأ الغراب. والكل يعلم أنه لم يكن بريئا تماما فيما ادعاه. وقصة أخرى هى أنه أثناء احدى المحاضرات - وكان معروفا عن المحاضر وهو انجليزيا أيضا أنه ضعيف النظر - أن أخرج حسن فتحى من جيبه نظارة ونفخ فيها بنفسه على الوجهين ثم أخرج منديلا وتظاهر بأنه يمسح وينظف زجاج النظارة وكانت فى حقيقة الأمر نظارة بدون زجاج أى أنها شنبر فقط. ثم بتؤدة شديدة يضعها على وجهه ويدخل اصبعه من خلال النظارة الى عينيه تاركا المحاضر مشدوها أمام هذه الظاهرة الغريبة، اذ كيف يخترق انسان زجاج النظارة باصبعه ويصل الى عينيه. وهكذا كنت أسمع من شرمى تلك قصة بعد أخرى عن حسن فتحى وقد أدت هذه القصص عكس ما كان يرجوه منها تماما. فقد ازددت حبا لهذا الرجل وأدركت أن هذه الحرية التى يشكلها فى فكره وفلسفته تمتد جذورها الى طفولته وشبابه فى صورة شقاوة بالغة الفكاهة.

ثم جاء دور حسن فتحى فى رد الهجوم على أحمد شرمى ببرقيته الشهيرة التى أرسلها اليه من أسوان والتى جاء فيها ما معناه: "يسعدنى أن أقدم لكن تهنئتى الخالصة على التحفة المعمارية الخالدة التى أقمتموها فى أسوان فوق جزيرة الفنتين، وهى برج فندق أوبروى (كانت شركة التعمير قد انتهت من تصميم وتشييد هذا البرج) وأقترح عليكم أن تقوموا بتغيير طبيعة أسوان كلها من نيل وجزر وصخور وجبال لكى تتلاءم مع جمال برجكم الرائع". ولم يفطن أحمد شرمى الى تهكم حسن فتحى اللاذع الا بعد أن انتهى من قراءة البرقية وكان سعيدا بسطورها الأولى ولكن بدأ التجهم يظهر على وجهه عندما توغل فيها وأدرك معناها الحقيقى ونظر الىّ باشمئناط شديد قائلا: "انه يسخر منى".

لم يكن نصيب مشروع معهد الفنون الشعبية أسعد حظا من كثير من مشروعات حسن فتحى والسبب فى ذلك هى نفس الأسباب التى كانت وراء عدم تنفيذ كثير من مشروعاته وهى التصادم الفكرى الشديد بينه وبين (الموظفين). فقد رأى موظفو وزارة الثقافة أن ميزانية المشروع تجاوزت الحدود المرسومة لها، ولم يكن حسن فتحى شديد الصبر على موضوعات الميزانيات وأبوابها وبنودها، شديد التبرم بكل ما يتعلق بها من اجراءات ولوائح. ولقد حاولت جاهدا أن أتولى عنه التعامل مع (الموظفين) واقترحت أن يكتفى باقامة مبنى واحد يحتوى بصفة مؤقتة على أنشطة المعهد الرئيسية ويؤجل بقية المشروع الى حين تدبير الاعتمادات اللازمة فى السنوات المقبلة. ولكن هذا الاقتراح لم يلقى هوى من وزارة الثقافة وطوى المشروع كما طويت مشروعات كثيرة قبله.

لقد كان حسن فتحى قليل الصبر مع الموظفين خصوصا كبارهم ولم يكن واسع الحيلة فى التعامل معهم وظل عدوا لدودا لهم الى آخر حياته.

كان لى شرف أداء فريضة الحج مع المرحوم حسن فتحى عام ١٩٨٣ بدعوة من مركز أبحاث الحج بجدة. وأذكر حادثة بعينها أثناء أداء هذه الفريضة الكريمة. فقد كان علينا الطواف حول الكعبة المشرفة والسعى بين الصفا والمروة فى الليلة الأخيرة قبل الصعود الى عرفات. وكانت الكعبة أشبه بليلة الحشر أو أشد هولا . وقد علمت أن الطواف والسعى فى هذه الليلة عادة شديدا الزحام. وقد عرضت على المرحوم حسن فتحى أن نستأجر أحد الحمالين لكى يحمله فى صندوق يجلس فيه ويطوف به ولكنه أبى الا أن يقوم بالطواف على رجليه. وقد أدينا الطواف بشق الأنفس وما أن انتهينا منه الا ورأيت المرحوم حسن فتحى يغمض عينيه ويتصلب وجهه ثم يهوى الى الأرض. فقمت بحمله وأجلسته مستندا الى أحد أعمدة الكعبة. لقد أدركت أن هذه هى النهاية. وفكرت فى أننى لو مسحت وجهه بماء زمزم لكان فى ذلك خير وبركة سواء أكان مازال حيا فى دار الدنيا أو كان قد انتقل الى دار الخلد. ولقد صدق ذلك حدسى وهو فى غيبوبة تامة ورأسه منكفئة على صدره ولا أثر للحياة عليه. جلست الى جواره أفكر فيما يجب علىّ عمله. لا شك أن لقاء الله سبحانه وتعالى والانسان فى هذا المكان الطاهر لهو شرف ما بعده شرف ، لكنى أخذت أعد نفسى للمهمة الصعبة التى تنتظرنى. وبينما أنا فى هذه الحال ، اذا بصوته الحبيب يطرق أذنى "أهلا يا أبو زيد" ولكنه كان صوتا ضعيفا أشد ما يكون الضعف، فنظرت اليه فاذا به وكأنه عاد الينا من عالم آخر بعيد وارتسمت على وجهه ابتسامة خافتة نبيلة.

وبعد استراحة طويلة استرد فيها وعيه، قال : "دعنا نسعى". وقام الرجل وسار بخطى بطيئة مستندا علىّ حتى وصلنا الى الصفا. هنا أدركت استحالة قيامه بالسعى بين الصفا والمروة، فالزحام كان على أشده ولن أستطيع أن أسير به مترا واحدا ، ولم أجد أثرا للعربات التى تسير فى المحور الأوسط للمسعى حاملة المرضى وكبار السن ، فقد اختلط تماما الحابل بالنابل فى ذلك الوقت ، ولا أعلم كيف يمكن لأحد أن يسعى وسط هذه الكتلة البشرية المتراصة. أمام هذا الموقف العصيب، قمت باصدار فتوى "شرعية" لم أبح بها الا الآن ، وانى لأعلم مقدما رأى مشايخنا الأجلاء فيها. لقد قلت فى نفسى أن الدين يسر لا عسر ، واذا كان ديننا الحنيف قد أباح لنا أداء الصلاة بتحريك جفون العين اذا ما عجزت بقية أعضاء الجسم عن أدائها ، فلماذا لا نستخدم العين فى أداء نسك آخر وهو السعى بين الصفا والمروة اذا استحال على الانسان القيام بها راجلا أو محمولا وذلك بطريق القياس وهو مبدأ من مبادىء الفقه والتشريع. اننى كنت على يقين بأن هذا الرأى خروج على مناسك الحج الصحيحة ولكن هل كان أمامى بديل آخر!

عاونت المرحوم حسن فتحى على الصعود الى ربوة عالية وأجلسته فوق أحد صخور الصفا. وطلبت منه أن يمد بصره الى آخر المسعى حتى ربوة المروة ثم يرجع البصر ويفعل ذلك سبع مرات. وتركته جالسا وحده وصعدت للدور الثانى حيث كان الزحام أخف وطأة من الدور الأول. وأتممت السعى بشق الأنفس فى حوالى ساعتين ويستغرق السعى نصف هذه المدة أو أقل فى الأحوال العادية. ورجعت الى الدور الأول حيث تركت حسن فتحى، وكنت أتساءل : هل أجده فى مكانه، وهل كنت على حق حين تركته وحيدا ، وماذا يكون عليه الحال لو أتاه أمر الله وليس معه ما يدل على شخصيته، اذ أنه مع ارتداء ملابس الاحرام لا نستطيع أن نحمل جواز سفر أو بطاقة تحقيق الشخصية. ولمت نفسى لوما كثيرا.

ولكنى حين رجعت وجدت الرجل جالسا فوق صخرة الصفا العالية كما تركته. وما رأيت وجهه أكثر صفاء واشراقا عما كان عليه فى هذه اللحظة. لقد كان يكسوه مسحة من الرضا ويشع منه جمال روحى وكأنه قديس من القديسين أو ولى من أولياء الله الصالحين. وأخبرنى أنه كان سعيدا كل السعادة بجلسته هذه،

فقد رأى من هذا المكان العالى الطائفين والساعين والركع السجود• وأمكنه أن يستخلص كنه الحج وحكمته في هذه الساعات العامرة بالايمان• وترك نفسه تسمو فوق الدنيا ومن فيها وتسبح في آفاق الروح ، وراودته أفكار نزلت عليه وكأنها وحى من السماء• عجبت من أمر هذا الرجل ، فلا شك أن بداخله قوة روحية هائلة تجعله يتجه دائما الى كل ما هو صادق وجميل فى هذه الحياة متجاوزا نقائص الدنيا وقيودها•

كانت جلسات عرفات ومنى امتدادا لجلسات القاهرة ، الحديث الممتع عن البيئة التى خلقها الله والبيئة التى من صنع الانسان وما يجب أن يحمله المبنى من معانى التكريم لمن شيده ومن يشغله ومن يراه• لقد خلق الله الانسان لعمارة الأرض وانها أمانة عظمى لا يستطيع أن يحملها غيره وعليه أن يؤديها كأحسن ما يكون الأداء• وربما كانت روح التسامح التى توحى بها هذه الأماكن المقدسة الطاهرة أثرها عليه ، فلم أسمع منه كلمة واحدة ضد "الموظفين" وناقلى أشكال الغرب وطرزه• وكان الكل ملتفا حوله مشدودا اليه مصغيا الى حديثه، فأينما يكون فلديه دائما هذه المغناطيسيه الشديده التى تجذب غيره اليه• وأخذ له الصديق الدكتور عادل يس الكثير من الصور، وحينما أنظر اليها الآن أحس بأن حسن فتحى وسو جالس بملابس الاحرام البيضاء وحوله سامعية أشبه ما يكون بالمهاتما غاندى بين حوارييه•

وبعد أداء الفريضة، أعد له مركز بحوث الحج معرضا كاملا من أعماله بجدة دعا اليه الأمراء والوزراء والسفراء الأجانب، وأخذ زواره فى جولة حول المعرض شارحا كل مشروع من مشروعاته وسمعت منه لأول مرة هذه الجملة الجميلة :

The curved line is the line of beauty but the straight line is the line of duty.

أى أن الخط المنحنى هو رمز الجمال أما الخط المستقيم فهو تعبير عن أداء الواجب • وذلك ردا على سؤال وجهه اليه السفير الأمريكى وهو ما يفسر حبه لمنحنيات القباب والقبوات•

ان مركز أبحاث الحج لم يعد قائما الآن وانى لآمل أن يحاول أحد معاهدنا العلمية الاتصال بمن هو مسئول عن وثائق هذا المركز للحصول على نسخة من صور أعمال حسن فتحى التى رأيتها فى هذا المعرض، فلم أرى أجمل منها فى أى مكان آخر•

أما التجربة الثالثة فكانت فى احدى ضواحى باريس حيث توجد ضيعة الأمير أغاخان• كان ذلك عام ١٩٧٦ وكنا حوالى ثلاثين شخصا ودعانا الأمير من أركان الدنيا الأربع وتنوعت مشاربنا أشد ما يكون التنوع فكان منا المفكر والمعمارى والفيلسوف والمهندس والأستاذ فى علوم التاريخ والاجتماع، وكان منا عرب وعجم وترك ولاتين وأربين وأسيويين وأنجلوسكسونيين وغير ذلك من أجناس البشر وأخلاطها• وكان السؤال المطروح علينا والذى اجتمعنا من أجله هو: هل هناك ما يسمى بالعمارة الاسلامية، واذا كان الأمر كذلك فما هى معايير هذه العمارة• لقد قرر الأمير منح جائزة فى العمارة الاسلامية على غرار جائزة نوبل وكان مستعدا لرصد المال اللازم لها وكان علينا أن نشير عليه بالطريقة العملية لتحقيق فكرته هذه• وجاء المرحوم حسن فتحى والزميلة العزيزة الدكتورة نوال حسن وأنا من مصر الى هذا الحشد الدولى المنتقى • والحقيقة اننى بهرت بمستوى المناقشات وبالأفكار التى طرحت على بساط البحث وشعرت بفخر كبير أنه يوجد بيننا مفكرين على هذا المستوى الرفيع من الفكر لم يصل اليه – كما ظننت – عمالقة الفكر الغربى الحاضرين من أمثال جاك بيرك الفرنسى وغيره•

وكان لى فى هذا الأمر رأيا جارانى فيه بعض من الحاضرين مثل المرحوم المهندس فضل الرحمن خان، أسطورة الانشاء فى القرن العشرين• ويتلخص هذا الرأى فى أنه لا توجد عمارة يمكننا أن نقول عنها أنها عمارة اسلامية والا لأطلقنا على غيرها بأنها عمارة غير اسلامية، ومثل هذا التحديد والتقسيم الشديد لا يتفق

مع طبيعة الاسلام. ولكن هناك عمارة تتلاءم مع روح الاسلام ومبادئه " Architecture in Spirit of Islam " وعمارة تتنافى مع القيم التى جاء بها. لقد كرم الاسلام الانسان أعظم ما يكون التكريم ونادى بالمساواة والتواضع ونهى عن القهر والاستعلاء وأدخل الكون كله فى نطاق الفكر الانسانى وفى مجال وجوده، واقترب مع الانسان الى الوسطية والسببية ونحى عن المجرد والمطلق واللانهائية لغير الله. لذا فان العمارة يجب أن تعبر عن الانسان بكل خصائصه المتكاملة والمتناقضة فى آن واحد. تعبر عن وجدانيته وعقلانيته وتعبر عن ماديته وروحانيته. تعبر عن طبيعته الفسيولوجية والاجتماعية كما تكون مرتبطة بمقاييسه ومحدداته ، أى أنها تجمع فى تكوين موحد بين المجرد Abstract والمحدد Concrete وبين المحسوس tangible وما وراء المحسوس Intangible وليس هناك حد فاصل بين النقيضين بل هما متداخلين فى نسيج واحد.

أما العمارة التى تهدف الى عزل الانسان وفصله عن انسانيته وتسعى الى قهره بضخامتها وجبروتها وتفرض عليه الشعور بالصغر والضآلة فهى بعيدة عن روح الاسلام وطبيعته.

الأمر الآخر أنه لا توجد كلمة فى اللغة العربية مرادفة لكلمة Architecture ولكن توجد كلمة أخرى جامعة وأكثر شمولا وهى كلمة العمران وهى تعنى البناء والسمية والتحضر فى آن واحد. ونستخلص من ذلك أن المبنى ليس له فى حد ذاته قيمة حقيقية بل قيمته تكمن فى مدى تكامله مع التجمع العمرانى المحيط به ومدى قدرته على اثراء الحياة الحضرية المقام فيها والعلاقة الجدلية بينه وبين الطبيعة التى من صنع الله وبين البيئة التى صاغها الانسان.

ونصل من ذلك الى أن العماره الواجب تكريمها هى التجمع العمرانى فى دار الاسلام التى تتفق مع روح هذا الدين الحنيف وتكون معبرة عن قيمه ومبادئه. ثم ضربت أمثلة عن العمارة التى تقترب من روح الاسلام والعمارة التى تبتعد عنها بمسجدى أحمد بن طولون والسلطان حسن. فالأول قريب الشبه بالاسلام فى بساطته وتواضعه ، يشعر الانسان فيه بذاته غير هياب من قوة قاهرة مسيطرة تفوق طاقاته. أما الثانى وان كان لا يختلف اثنان على قيمته المعمارية العظيمة ، الا أنه فى انشاءاته المبهرة قد يتجاوز الحد الانسانى وحيزه الداخلى الذى يوحى بالرهبة والاعجاز ربما لا يدعو الى الألفة والطمأنينة . وقد بنى هذا المسجد فى العصر المملوكى حين وصلت الحضارة الاسلامية الى أدنى مستوى لها. وعلاقة سلاطين وملوك هذا العصر بالمجتمع المصرى هى علاقة المتسلط المتجبر على أفراد هذا المجتمع.

استمع المرحوم المهندس حسن فتحى الى الجزء الأخير من حديثى فى تململ واضح ثم انبرى للرد على ما قلته واتضح للحاضرين أننا نقف فى هذا الموضوع على طرفى نقيض. قال حسن فتحى انه يجب علينا أن لا نبالى كثيرا بالولاة والسلاطين مماليك أو عثمانيين أو سلاجقة أو غيرهم ، بل ان اهتمامنا يجب أن ينصب فى المقام الأول على الصانع الحرفى الماهر والبناء العبقرى الذى صمم هذا الصرح واقامه. ان التواضع خاصية انسانية كريمة ولكن سمو الانسان هى قيمة روحية نبيلة تدعوه دائما الى النظر فوق مادياته وحاجاته الوقتية المباشرة. حقيقة اننا نعيش على هذه الأرض ولكن التطلع الى السماء والايمان بالغيب هو ركن أساسى من أركان الاسلام. لقد حقق هذا المسجد لقاء الأرض بالسماء أكثر وأوضح ما يحققه أى مبنى آخر. ان أقبيته الأربع العظيمة تكاد تصل فى اتزانها المتناهى الى حد الكمال كما أن فراغه الداخلى بتكويناته ونسبه يمتع الروءيا البصرية الخارجية ويثير الشعور الايمانى الدفين. وأيضا فان تفاصيلة عند استخدام الرخام والحجر والخشب والنحاس لا تتحدث عن مقدرة فنية وحرفية عالية بل عن فكر بالغ الرقى وحس بالغ الارهاف. ان هذا المسجد هو حقا موسيقى رفيعة مجسدة. واستمر المرحوم حسن فتحى فى الحديث بعشق شديد عن هذا الصرح الاسلامى الخالد حتى كدت أن أقف وأطلب سحب ما قلته عن مسجد حسن فتحى المسمى بمسجد السلطان حسن من مضبطة الجلسة.

لقد ظل حسن فتحى من أول يوم من أيام هذا اللقاء الى آخره حكيم القوم ونجمهم اللامع. واتضح لنا أنه يجسم بشخصه فكرة "العمارة الاسلامية" أو "العمارة التى تتفق وروح الاسلام" سمها ماشئت خير تجسيم . اننا يجب أن لا نبحث بعيدا فيكفينا أن نراه ونستمع الى ما يقوله لكى نعرف الاجابة الصحيحة على السؤال الذى طرحه علينا الأمير أغاخان فى أول اجتماع لنا. فلا عجب بعد أن تحددت أهداف الجائزة ومعاييرها أن يكون حسن فتحى أول من يمنح "جائزة الرئيس" Chairman Reward تكريما له وتعظيما فى أول دورة من دورات هذه الجائزة.

منذ أن عرفت الرجل فى منتصف الستينيات كما أسلفت وحتى وفاته ، كنت دائم التردد على منزله بدرب اللبانة بحى القلعة وأحيانا ما كانت مشاغل الحياة تباعد بين هذه الزيارات ولكنى كنت دائما أهفو الى شخصه وبيته. كان كريما مع ضيوفه يلقاهم دائما بترحاب حقيقى ويبعث فيهم شعورا جميلا بالمحبة والالفة ويضفى على سامعيه الكثير من ثراء نفسه وصفاء قلبه. كان يحلو له الجلوس معهم فى أمسيات الصيف على سطح المنزل محاطا بهذه البنوراما الاسلامية الرائعة من مآذن وقباب ميدان القلعة ويأتى صوت المؤذنين مختلطا بنسمات الغروب باعثا فى النفس عبق التاريخ وطلاوة الايمان. وفى الشتاء كان يجلس بغرفة الجلوس أو أمام مدفأته مرتديا فى أغلب الأحيان عباءته الشهيرة. أما قططه ، وكان شديد الحب لها يرعاها رعاية الأبناء فكان حريصا على أن تظل فى مكانها فى الممر المفتوح خارج غرفة الجلوس حتى لا تسبب مضايقة لضيوفه. وقد رأيته أكثر من مرة وهو يوزع عليها قطع اللحمة الصغيرة المطهية بالعدل والقسطاس منها من تسول لها نفسها خطف قطعة أخرى هى من نصيب أخت لها.

كان زواره اما من أقربائه وأصدقائه التى تربطهم به علاقات قديمة أو من محبيه ومريديه من معماريين وفنانين أو من أجانب سمعوا عنه أو قرأوا له ، أتوا لزيارته اما بأنفسهم أو بصحبة مصريين من معارفه. وأذكر سيدة فاضلة كانت دائمة التردد عليه عرّفت نفسها لى بأنها "زوجة حسن بك السابقة" وكانت هذه السيدة شديدة العطف عليه وعلمت فيما بعد أن زواجهما كان قصيرا وعاصفا. ولكن بمجرد انفصالهما تحولا الى صديقين حميمين. وظلت هذه العلاقة الحميمة تربطهما الى أن توفاها الله قبله بسنوات قليلة. وروى لى صديق أنه زاره ذات يوم فوجده جالسا وحده ويكاد الدمع ينساب من عينيه ، فما سأله عما ألم به ، كانت اجابته قصيرة خارجة من أعماقه "لقد ماتت". فهم صديقى أنه يقصد زوجته السابقة فلم يعقب واحترم صمته الحزين.

كان حديثه مع ضيوفه وزواره دائما طليا ممتعا وكانت له قدرة عجيبة فى التعبير عن فكره بأسلوب سهل معبر أخاذ يكاد يأسر العقل والقلب معا. وكانت تعبيراته وأمثاله على قدر جديتها وعمقها شديدة البساطة والفكاهة ، وكان حديثه كله يدور حول محور واحد فقط هو فلسفته فى العمارة والحياة.

أقام حسن فتحى عالمه الخاص به الذى يتسق مع فكره فى الدور العلوى من مبنى عربى أثرى فى درب اللبانة وعاش فيها وحيدا خلال الثلاثين سنة الأخيرة من حياته. وكانت تؤنس وحدته موسيقى باخ التى تنساب أنغامها بين ردهات وأفنية هذا المبنى الاسلامى وكأنها ألفت خصيصا له وأن الانسان ليعجب كيف أن عملاقين عظيمين اتسما بالخلق والابداع يمكن أن يتصادقا ويتآلفا مثل موسيقى الألمانى باخ ومبنى رقم أربعة درب اللبانة بالقاهرة رغم اختلافهما فى المولد والنشأة وتباعدهما فى المكان والزمان.

لم يجد فكر حسن فتحى صدى كافيا ولم تجد دعوته استجابة تذكر ولم تتجاوز دائرة الخاصة من المفكرين والمعماريين الا فى أقل القليل فجامعاتنا التى أسرفت فى تدريس عمارة الغرب وشرح نظريات

أساطينها ضاقت ذرعا بالعمارة البيئية وبحسن فتحى كما أن النظام البيروقراطى لم يتسامح مع طريقة حسن فتحى فى ادارة مشروعاته وتنفيذها ، فكل من الحياة الأكاديمية فى مصر والحياة العملية خلال النصف الأخير من هذا القرن لم يفسحا المجال كافيا لما نادى به هذا الرجل . ولو كنا اعترفنا حقيقة به مثل اعتراف العالم الخارجى بعبقريته ، لكان لحياته معنى آخر . ولكن رغم وحدته، فقد ظل محاربا شديد المراس ورغم ما لقيه من احباط بعد احباط، فانه لم يفقد أبدا تفاؤله وآماله . وكثيرا ما سألت نفسى عن سر هذه القوة العظيمة التى أودعها الله هذا الجسم النحيل .

لست هنا فى مجال تحليل تفصيلى لفكر حسن فتحى ونظريته فى العمارة ولكنى أوجزها على قدر ما فهمتها . يبدو لى أن فكره فى مجمله يدور حول ثلاث محاور مترابطة . المحور الأول هو انحيازه للفقراء منذ البداية . فرغم أنه ينتمى أسريا الى الشريحة العليا من مجتمعنا الا أن اهتماماته انصبت فى المقام الأول حول عمارة الفقراء، وكثيرا ما كان يقول "ان فقراء العالم الثالث هم عملائى الحقيقيون" قيل أنه حضر مرة مؤتمر عن اسكان محدودى الدخل Housing for limited-income groups فطلب فى كلمته أن يكون المؤتمر عن Housing for no-income groups أى عن اسكان من لا دخل لهم .

ان العمارة تقليديا هى عمارة الخاصة الحاكمة حيث المال الوفير والمواد متاحة محلية كانت أو مستوردة وحيث المعايير والنظم مستقرة منذ أجيال بعيدة . أما عمارة الفقراء ، فانها تتطلب بدايات جديدة وتقوم على أسس تختلف تماما عن سابقتها فضلا عن أنها مازالت فى أدوار التكوين الأولى ومشكلتها ولاشك أكثر صعوبة اذ كيف تقام عمارة انسانية جميلة بتكاليف محدودة أو بدون تكاليف على حد قوله . لقد أجاد حسن فتحى لغة هذه العمارة وتطورت على يديه وأصبح أستاذا لها على مستوى العالم كله .

ويقوم فكره فى هذا المجال على "تكفير" استخدام المواد المستوردة أو حتى المصنعة تصنيعا مكلفا . بل يجب استخدام نظم البناء والمواد المحلية المتاحة من طين وطفلة وحجر وخلافه . ولم يمقت شئ قدر مقته لنظام "بريفبريكيشن" Prefabrication فى البناء ، وكان ينطق هذه الكلمة ببغض شديد . كما يقوم فكره أيضا على حتمية مشاركة الناس فى البناء مشاركة فعالة والتعاون فيما بينهم ، وهو صاحب التعبير المشهور " ان رجلا واحدا لا يستطيع أن يبنى بيتا واحدا ولكن عشرة رجال يمكنهم أن يبنوا عشرة بيوت" وكان يرى أن صيغة "المقاولات" ليس لها مكان فى عمارة الفقراء . فالمقاول وما يمثله من تكلفة مشروعة أو غير مشروعة يجب أن يخرج من هذه الساحة . وعلى المعمارى أن يعمل من خلال الناس وبهم ، وقد أوجز رأيه بهذه العبارة البليغة "ان البناء يجب أن يكون مؤسسا على العلاقات الانسانية المباشرة وليس على نظام النقد اللاشخصى" كما جاء فى أحد رسائله وحوى كتابه الشهير Architecture for the poor "عمارة من أجل الفقراء" الذى نشرته له جامعة شيكاجو فكره هذا بصورة مفصلة .

أما المحور الثانى لفكره فهو انكار استقدام الانماط الجاهزة من الفكر الغربى وزرعها فى بيئة غريبة عليها والاتجاه بدلا من ذلك الى محاولة اكتشاف "عبقرية المجموع "Collective Genuity فى البناء . أى أن جذور فكره تمتد مكانا الى التربة المحلية وزمانا الى الاصالة والتراث عبر العصور . ان تكوينات العمارة المحلية وهى تمثل خلاصة تجارب الانسان فى الخلق والابداع هى العناصر الأساسية الأولى التى قام باستيعابها واعادة صياغتها صياغة معاصرة . لقد أفصح عن هذا الفكر خير افصاح عندما تحدث عن عمارة النوبة فيما يلى " لقد خلت هذه المساكن من تلك الضعة فهى أصيلة فى طرازها . عمارتها نابعة من عبقرية الجنس وقد تركزت فيها خبرة الأجيال . تشعر بالكرامة واعتزاز أهلها بعريق محتدهم" .

وهنا يجب علينا أن نشير الى أن المرحوم حسن فتحى هو من جيل توفيق الحكيم والدكتور حسين فوزى ، ولكن لم ينح نحوهم فى محاولة فتح أبواب الثقافة المصرية على مصراعيها لتستقبل حضارة الغرب وابداعاته بل كان أقرب فى فكره الى يحيى حقى فى أدبه والذى يقوم على أن ذاتنا وليس غيرها هى مجالنا الحقيقى فى البحث والاكتشاف • اكتشف القيمة الانسانية والفنية للحوائط الحاملة والأقبية والقباب من المواد المحلية وعرف كيف يتعامل البنّاء المصرى مع الطبيعة والمناخ بوعى وبصيرة• ثم رأى "الشكل" Form "والزخرف" Ornaments يعبران خير تعبير عن حس المجتمع خلال تجاربه الطويلة مع ذاته وبيئته مع قيمه وعقائده• وأيقن أن حيز المبنى وفراغه هو فى حقيقة الأمر امتداد خارجى للطبيعة الداخلية للانسان المصرى • لقد كان من السهل عليه ربما أكثر من غيره الاتجاه الى باريس أو لندن ، فهو يتكلم الفرنسية والانجليزية كأحد أبنائهما ولكن أصالته أبت عليه ذلك واتجه بعقله ووجدانه نحو ريف مصر وصحرائها نحو النوبة جنوبا والبجوات فى الواحات الخارجة باحثا ومستلهما• فلنستمع اليه وهو يتحدث عن كيف بنى أهل النوبة قراهم عند التعلية الثانية لخزان أسوان "ان قرى النوبة التى بناها الأهالى عام ١٩٣٣ اعمل فنى لايقل روعة عن معبد أبو سنبل وكان الأمل أن يلتفت اليه المهندسون والعلماء ورجال اليونسكو وأن تدرس ما فى الأقل تكتيكات البناء التى أتاحت للأهالى القيام بمثل هذا العمل الانشائى على النطاق الواسع الكبير دون أن تضطرهم العجلة الملحة لاهمال النواحى الجمالية والثقافية أو تطبيق مبدأ النموذج الموحد الضار بالانسانية والمجتمع اذ لا عائد منه ولا رصيد له من الثقافة والخبرة الفنية والحضارة"• ان أصدق ما يوصف به حسن فتحى أنه عاش حياته "تلميذا" لمصر بسبقويتها فى الحياة عبر الزمن•

أما المحور الثالث فهو ازالة التناقض المفتعل بين الأصالة والعلم الحديث فالرجل لم يقف من العلم موقف المتشكك أو المتردد بل نادى بضرورة استخدام علوم العصر وكتشفاته فى تطوير العمارة المحلية وطبق نظريات ميكانيكية التربة والانشاءات وعلوم مقاومة المواد وطبيعة البناء Building Physics من تهوية وانارة وعزل حرارى على مبانيه• لقد برهن على أنه ليس أمام المفكر خيارا بين الذاتية المحلية وبين العلم بل تكامل وتوحد بينهما• لقد كانت احدى أهدافه الرئيسية انشاء ما كان يسميه بمعهد التكنولوجيا المتوافقة Appropriate Technology حتى اعتبر اقامته شبه رسالة مقدسة عليه أن يؤديها • والغرض من هذا المعهد ايجاد التوافق بين المحلية والتكنولوجيا الحديثة أى وضع العلم والآلة لتلبية حاجات الانسان المصرى الحقيقية وتطلعاته الى حياة كريمة • ولكن بقيت الفكرة حلما لم يتحقق بعد•

بقى لى كلمة أخيرة هى أن المرحوم حسن فتحى قد أدمج فى عمارته كلا من الزمان والمكان Time and Space.. فلايمكن فصل عنصر الزمن عن الحيز الفراغى لمبانيه فهما عنده شئ واحد• كما أن الحيز الداخلى فى المساكن التى صممها يتسم بالرحمة والسكينة واحتواء الانسان برفق وفى تعاطف شديد• وقليل من معمارى العالم أمكنهم الوصول الى هذه الدرجة الرفيعة العالية من الخلق والابداع• رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عنا خير الجزاء ولا أجد خير ما أختم به هذه الورقة من قوله تعالى : "يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى" صدق الله العظيم •

أبو زيد راجح

PROFILE OF HASSAN FATHY

Ladies and Gentlemen:

In the mid sixties, the Ministry of Culture commissioned Hassan Bey with the design of Folklore Arts Institute.
At the same time , the Ministry also commissioned the Development and Popular Housing Company with preparing the detailed drawings and construction documents of this project based on Fathy's design.
As chief designer of the Company at that time, I found myself with a group of young architects working closely with Hassan Bey on this project for almost a year.
I was very much impressed with the design. Inner and outer spaces were handled in a masterful way. Buildings were set together around a series of inner courts with fountains in a rhythmic form. They did not lack Fathy's usual musicality in his architecture. The project expressed that warm invitingness commonly known in Fathy's architecture.
It was supposed to be a research and teaching institute for all aspects of folklore arts : music, singing, dancing mythology and crafts . These arts represent the soul of Egypt.
A main part of the project was a museum of Islamic and Indigenous architecture, particularly buildings from Old Nubia and buildings from different rural, desert , and coastal regions of Egypt. Had this museum been built , it would have been the first of its type. The different buildings would be a standing record of local Egyptian contemporary and historic architecture.
Of course, I had known Hassan Bey before , but it was the first time to see him in real action. In the few minutes allowed for me, I will try to draw a profile of this very special man as I saw him at that time. It is indeed a profile of serenity and greatness.
Hassan Bey in essence was a great teacher. The group of the young architects working on this project was very much attracted to his magnetic personality. They surrounded him for

hours, day after day, listening attentively to him, talking about architecture, which was to him , almostly a sacred profession.
He explained with great passion, Islamic Architectures: its spiritual and symbolic values and its beautiful human formation of spaces and masses.
His talks covered other areas of Human thoughts. He had this gift of expressing the complexities of ideas in a simple, attractive and poetic form. His wit and sense of humor were unmatched.
Very few people I met have such a high intellect and also so free in mind and soul.
He took us in tours visiting mosques and historical Arab houses in the old parts of Cairo. We saw with new eyes the merits of these buildings and he explained to us the Urban fabric of the old city and how it reflected the Collective Mind in that time.
These tours generally ended at his residence in Darb El-Labban near the Citadel where he continued his teachings over dinner in a warm and fatherly atmosphere. He was very much loved by those young architects.
Hassan Bey showed no tolerance with regulations and routine. He was impatient with officials who knew nothing but to go by the book. With his uncompromising spirit, conflicts over the project mounted up. I was caught in the middle of cross fire between the two sides. To save that valuable project, I proposed that it could be built in phases, if it was difficult for the Ministry of Culture to finance it all at one time. This proposal did not help and at the end somehow the project unfortunately was never built.
From the many talks I had with Fathy, I understood that his relation with the Establishment was never cordial . His free spirit could not be contained within the concrete walls of any authority.
Probably that was the reason why so many of his projects were never built.
My relation with Fathy became closer and continued till his last days. We did the Holy Hadj together in 1983 and I came to see closely the saintly side of this man.

Also we were invited together with Nawal Hassan in 1976 to Paris by His Royal Highness Prince Karem Khan. With a distinguished group we laid down the foundation of the Aga Khan Award for Architecture. Fathy's contribution was indeed memorable. And as we all know he was the first recipient of the "Chairman Award".

Hassan Fathy was a unique Architect. Great Masters were known for their Monumental Buildings. Fathy was different amongst the Masters. I do not know of any monument he built or designed.

He built for the poor, and he committed himself firmly to serve them. Once he called his clients not the low-income people but the no-income people.

With the poor, for the poor and by the poor he created a noble and serene Architecture. That is why he was a unique and genius Architect.

I always wonder how such a humble and simple man was so able to give so much to so many.

And how he had such everlasting effect on any body who came close to him and touched his shadow.